

طروادة: تاريخ للمخيلة إعداد: صبحي حديدي

لعلّ وقائع حصار طروادة، وسقوطها، وتدميرها، صنعت الحكاية غير الدينية الأكثر سرداً وتناقلاً وإلهاماً واستلهاماً على مدى التاريخ. ولقد توفّرت، في كلّ الحقب الرئيسية من عمر البشرية، هذه الحزمة أو تلك من الشروط التي تشجّع على استعادة الحكاية وتوظيفها بما يخدم سلسلة من الوظائف الإيديولوجية، والأخلاقية، والسياسية، والتعبوية، والمعنوية، والثقافية. . .

وفي أزمتنا المعاصرة هذه، حين تبدو الإمبراطورية الأمريكية وكأنها تستأنف ما انتهى إليه السلامان الروماني والبريطاني، لا تقفز أمثلة طروادة سريعاً إلى وجدان المحاصر وحده، بل تتلبّس سلوك المحاصر بدوره. ولم يكن غريباً أن يقرر الصحفي الأمريكي نيكولاس كريستوف الذهاب، عشية الغزو الأمريكي للعراق، إلى المكان الوحيد الجدير بالمناسبة الوشيكة: خرائب طروادة، في تركيا المعاصرة، على مبعده أميال من ساحات الذبح القادمة في العراق!

وقبل سنة حين شهدت صالات العالم عروض فيلم "طروادة"، أحدث اقتباس هوليوذي للملحمة الطروادية وأكثرها كلفة (١٧٥ مليون دولار) وفخامة و... سطحية، لم تكن المصادفة الزمنية هي وحدها التي جعلت الكثيرين يربطون بين أغانمنون كما يظهر في شريط ولفغانغ

حديدي: تاريخ للمخيلة

بيترسن، وأغامنون/دونالد رمسفيلد كما يظهر في أشرطة البنتاغون! وفي قلب مهرجان كان الفرنسي اعتبر النجم براد بيت، الذي يؤدي دور آخيل في الشريط، أن هذه الحكاية التي تروي التعطش للدماء، وحصار الشعوب، وشهوة السلطة، وجشع الملوك . . . لا يمكن إلا أن تتوازي مباشرة وبوضوح مع ما يفعله زعماء أمريكا وبريطانيا في العراق. المثلة البريطانية سافرون بوروز، التي تؤدي دور أندروماك، ذهبت أبعد حين اعتبرت أن الشقيقتين الإغريقيين أغامنون ومنيلاوس يذكرانها بـ "الأخوة القائمة حالياً بين بوش وبلير" . . .

وإذا كان من غير المدهش أن تتحوّل أمثلة طروادة إلى مصدر للاقتداء والتماهي عند الشعوب والجماعات المقهورة، أو تلك التي تعيش مأزق هوية من أي نوع، أو تبحث عن أصل تليد أفضل ممّا تنتسب إليه فعلياً (كما نتبيّن في الجزء الثاني من هذا الملف)؛ فإنّ من غير المدهش أن يحتاج القاهر بدوره إلى الأمثلة ذاتها! لقد سقطت طروادة على أيدي الإغريق، الذين كانوا المجموعة الأقوى شوكة في تلك الحقب؛ ثم فرّ الأحياء من أبناء طروادة إلى إيطاليا. بعد أن مرّوا بمملكة قرطاجة وعاثوا فيها فساداً. لتأسس الإمبراطورية الرومانية التي لن تغرب عنها الشمس، بحيث انقلب المقهور إلى قاهر (كما تروي ملحمة فرجيل "الإنياذة").

وعلى مرّ العصور احتاجت الزعامات الإمبريالية إلى ملاحم من طراز الحروب الطروادية. وحين وطأ الاسكندر المقدوني سهل طروادة الذي شهد سفك دماء الآلاف، كانت أوّل خاطرة تعبر ذهنه هي التالية: من أين لي بهوميروس جديد يفعل معي ما فعل ذلك الشاعر الأعمى مع آخيل! والقيصر أغسطس حصل بالقوة على ملحمة خاصة تخلّد أمجاد روما، انتزعها بالمعنى الفعلي للكلمة من شاعرٍ معرّض عن المهمة، وغارق في مسّ من الجنون. نابليون، في زحفه على موسكو، حمل نسخة من ملحمة "أوسيان" التي تتحدث عن اسكتلندا في عصور الظلام، وليس عن فرنسا، ولكن يرويها شاعر أعمى مثل هوميروس! والعمل الأدبي المفضّل عند موسوليني كان مسرحية شكسبير "يوليوس قيصر"، لأسباب لم يفلح حتى عزرا باوند في إقناع الدوتشي بأنها غير التي تميّز المسرحية . . .

كذلك نتذكر أنّ هاملت، ولكي يقدم العرض المسرحي الأكثر تأثيراً في النفوس، يطلب من الممثلين أداء ذلك الجزء الفريد من "الإنياذة"، حين يروي إينياس للملكة ديدو وقائع خراب مدينته طروادة واجتياحها وتدميرها. ومن هنا تبدأ أولى فصول مأساة ملكة قرطاجة، التي تقع في غرام

إينياس، المنذور من جانبه لمهمة أكثر قداسة من الحب: الحرب، وبناء إمبراطورية روما.
وهنريش شليمان، عالم الآثار الألماني الذي اكتشف موقع طروادة الحالي أواخر القرن التاسع عشر، وضع عن مغامرته هذه كتاباً مدهشاً بعنوان "طروادة وبقاياها: سردية بحث واكتشافات في موقع إيليوم وسهل طروادة"، تهيمن عليه نبرة الرجل المولع بالأمثلة الملحمية وسرديتها، أكثر من ولعه باكتشاف الموقع الجغرافي للمخيلة الهوميروسية، أو بالعثور على قناع أغاممنون وسواه من كنوز.

وفي مستوى آخر، إذا كانت طروادة أمثلة يقبل شعراء مثل و. ب. بيتس، وهيلدا دوليتل، وأوسيب ماندلشتام، ومحمود درويش بالانتساب إليها لأنها تعين المقهور على جبروت القاهر، أو تزيل ظلماً هنا، وتفتح نافذة أمل هناك، فإنها عند شاعر مثل ت. س. إليوت تمثل "ذهنية" الهزيمة والاستسلام للقدر والوقوف في الخندق الأخير دفاعاً عن تراث آيل إلى انقراض! وفي نسق النماذج الأولى يكون الشاعر جزءاً حياً وحيوياً من صمود طروادة وبقائها (لأنه، ببساطة، فنّان المقاومة ومبدع الأمل)، وأما في نسق نموذج إليوت فإن الشاعر عزّاف ندّاب أقرب إلى إرميا الذي يرثي.

وهذا الملف لا يهدف، تالياً، إلى إعادة سرد الحكاية الطروادية كما رواها وخلدها هوميروس في "الإلياذة"، فهذه على الأرجح لم يعد فيها زيادة لمستزيد. الملف يسعى في المقابل إلى التوقف عند أهم ما قدمته المخيلة الإنسانية من تمثيلات للحكاية الطروادية، في أحقاب مختلفة، ولأغراض متباينة، بأدوات شتى. وهكذا فإن القسم الأول يعرف بالمدينة وحكاياتها، إذ أنّ حكايتها الأولى تشعبت وتنوّعت وتعدّدت؛ والقسم الثاني يستعرض بعض أهم أساطير الشعوب الأوروبية التي انطوت على، وعكست، ذلك النزوع المدهش للانتماء إلى طروادة؛ والقسم الثالث يقدم بعض نماذج تمثيل الفكرة الطروادية، في ميدان القصيدة والتنظير الشعري؛ والقسم الأخير يقتفي أثر التراث الطروادي من منظور ما يمكن أن يحمله من دلالات سياسية وتربوية في التاريخ الحديث، وفي وقائع الحاضر الراهن أيضاً.

ذات يوم، أواخر القرن التاسع عشر حين تناقل العالم أخبار عشور شليمان على الموقع الافتراضي لمدينة طروادة، غضب الناقد البريطاني جي كوبر بريانت واستشاط غيظاً وأطلق عبارته الشهيرة: "لعلنا أيضاً سوف ننقب ذات يوم بحثاً عن موقع اليوتوبيا، وعن موقع كوخ روبنسون كروزو في

جزيرة كاربي " ! ورغم أن المقارنة كانت ظالمة تماماً، وغير قائمة أصلاً، فإن بريانت نفسه سرعان ما انحنى أمام جبروت هذه الأمثلة الفريدة، طروادة، التي تكتب للمخيلة تاريخاً ملحمياً خاصاً بها!

I

من طروادة إلى روما : الحكاية المفتوحة

تسج الحرب الطروادية (١) خيطاً يربط ثلاثة آلاف سنة من التاريخ، والأسطورة، والحكاية، والموسيقى، والدراما، والفنون البصرية. والموضوعات الطروادية الشائعة تتضمن حتمية الحرب، ومسائل الملامة في نشوبها، والأمجاد البطولية إلى جانب الإفراط فيها، والتضحية الإنسانية، وسفك الدماء، وعواقب الحرب على النساء والأطفال خصوصاً.

طروادة وميسينا في العصر البرونزي

العصر البرونزي الميسيني هو الزمن الذي قد يكون شهد اندلاع الحرب الطروادية. ربما قامت بالفعل مدينة تُدعى طروادة على شواطئ آسيا الوسطى، وقد دُمّرت مرّات عديدة، بما في ذلك الدمار الذي وقع أواسط ١٢٠٠ قبل الميلاد، قبيل انهيار حضارة العصر البرونزي الميسيني. ولعلّ ذاكرة ذلك الانهيار ارتبطت بقصص "سقوط طروادة"، محوّلة قصة تلك الحرب العتيقة إلى استعارة جبارة تصف إنهاء الحضارات عن طريق الشهوة والعنف. وقصص "سقوط طروادة" رويت شفهاً طيلة مئات السنين قبل أن ينظم هوميروس ملحمتيه العظيمة "الإلياذة" و"الأوديسة" عن أبطال الإغريق الذين استباحوا طروادة، والأبطال الطرواديين الذين حاولوا الدفاع عنها.

هوميروس والحلقة الطروادية

كانت حرب طروادة هامة للإغريق لأنها باتت قصة أسلافهم الأبطال. ولهذا فقد نُظمت قصائد عديدة عن هذه الحرب، بينها "حلقة طروادة" التي تألفت من سلسلة ملاحم عاجلت الحرب الطروادية منذ أصولها الأسطورية في شجار الآلهة، إلى إياب الأبطال الإغريق المتعيين عند انتهاء الحرب. كلّ هذه الملاحم ضاعت، ما عدا اثنتين كتبهما هوميروس: "الإلياذة" و"الأوديسة".

وقد وضعهما هوميروس شفهيًا، ثم جرى تدوينهما لاحقًا، وأصبحتا توراة الأجيال التالية من الإغريق، لأنهما رُفعتا إلى مصافّ التاريخ والشعر معاً، ولأن اللغة كانت لامعة. ودون قصيدتي هوميروس البديعتين، كانت قصة طروادة تستظل قصة إغريقية ربما. ولكنها بقيت، وعاشت، وتطوّرت على امتداد قرون عديدة، وباتت القصة المركزية لأصول الحضارة الغربية.

"إنيادة" فرجيل: من طروادة إلى روما

في القرن الأول قبل الميلاد كان فرجيل قد كتب "الإنيادة" Aeneid، ملحمته عن تأسيس روما، واتكأ على أساطير عتيقة تروي كيف أنّ لاجئين من طروادة الساقطة هاجروا إلى إيطاليا، حيث أصبحوا أسلاف الشعب الروماني. واتكأ فرجيل كثيراً على هوميروس لسرد حكايته. والكتب الستة الأولى من "الإنيادة" تفتبس الكثير من عناصر "الإلياذة" لتروي عن الحروب التي وقعت في إيطاليا بين اللاجئين الطرواديين القادمين إليها، والشعب اللاتيني القاطن فيها أصلاً.

والحكاية في "الإنيادة" تقول إنّ إينياس والطرواديين أبحروا إلى إيطاليا بعد سقوط المدينة، حيث كانت أقدار إينياس تقتضي أن يؤسس روما. لكنّ عاصفة هوجاء تبعدهم عن مسارهم وتلقي بهم في قرطاجة، حيث ترحب بهم ديدو مؤسستها وملكتها. فيروي لها إينياس الحكاية الطويلة المؤلمة عن سقوط طروادة بعد خديعة الحصان. تتأثر ديدو بالحكاية، وهي الأميرة الفينيقية التي فرّت من بلدها صور، وأسست مملكتها بعد أن قام أخوها بذبح زوجها، وتقع في غرام إينياس. يعيشان كعاشقين فترة من الزمن، حتى تذكر الآلهة إينياس بواجبه الذي ينتظره في إيطاليا، فيصرّ على الإبحار، وتخزن ديدو إلى حدّ قتل نفسها بالسيف ذاته الذي تركه لها إينياس. وبعد دسائس ومغامرات، وأهوال، وحروب، يتمكن الطروادي من تأسيس المدينة التي ستصبح روما، وتطلق إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

و "الإنيادة" حوّلت الطرواديين الخاسرين إلى ظافرين، والإغريق الظافرين إلى خاسرين. كان الطرواديون أهل نبل، وصمود، ومشقة، وكان الإغريق أهل انحراف ومخاطر. ونال آخيل توبيخاً شديداً في "الإنيادة"، ممثلاً بشخصية تورنوس المحارب اللاتيني الهائج الذي تسبب بدمار هائل وتوجب قتله قبل إقامة أي سلام في إيطاليا.

ولقد عاش فرجيل قبل الميلاد (توفي سنة ١٩ ق. م.)، غير أن القِيم السائدة في " الإنيادة " كانت متطابقة مع القيم المسيحية، تشدد على فضائل التقوى، والتحمل، والمعانة، والقيادة، وطاعة الآلهة. ومن العجيب أن الآلهة في " الإنيادة " لم يخلقوا مشكلة للقرءاء المسيحيين، ربما لأن جوبيتر كان يمثّل الحكمة والخير. وهكذا، بينما جرى إهمال هوميروس في أوروبا العصور الوسطى، استمرت قراءة فرجيل والإقبال عليه.

انتقال طروادة إلى القرن الثاني عشر

خلال الحقبة ذاتها ظلّ هوميروس محبوباً ومقروءاً في الشطر الناطق باليونانية من الإمبراطورية الرومانية، وظلت " الإلياذة " و " الأوديسة " مهملتين في الغرب. وإذ تدهور تعلّم اللغة اليونانية في أوروبا، وأصبحت اللاتينية أوسع انتشاراً، باتت " الإنيادة " هي قصة طروادة الأكثر هيمنة في أوروبا. وكانت النتيجة أن أبطال الإغريق ظلوا أبطالاً في الشرق فقط، في حين بات الطرواديون هم الأبطال في الغرب. وتلهمت البلدان الأوروبية إلى التنقيب عن مؤسسيها وسط اللاجئين الطرواديين. وهكذا فإنّ إينياس لم يصبح جدّ الرومان فحسب، بل أصبح بروتوس هو الذي أسس الطبقة الحاكمة في بريطانيا.

الحكاية الرومانسية الطروادية

اثان من ثلاثة نماذج رومانس مبكرة اعتمدا على قصص من طروادة: عمل بونوا دو سانت مور " رواية طروادة " Roman de Troie، والعمل مجهول المؤلف " إينياس " الذي يعيد سرد " الإنيادة " اللاتينية بعد أن يضيف إليها نهاية سعيدة. هذان العملان ظهرا في القرن الثاني عشر، ورُويَا بالأنغلو-نورمان، اللغة المحكية لحكام فرنسا، وبريطانيا الذين ردّوا أصولهم إلى بروتوس، حفيد إينياس.

العاطفة، والحرب، والأماكن العجيبة، والسياسة كانت في صميم القصة الطروادية، وكان التاريخ عاملاً هاماً في تجدد شعبية طروادة، التي اعتبرت القرون الوسطى مكاناً فعلياً، فرّ منه أناس فعليون وأسسوا الإمبراطورية الرومانية.

ومن المحتمل أن الحملات الصليبية أسهمت في هذا الاهتمام بطروادة، باعتبار أنّ الصليبيين

ارتحلوا إلى الشرق الأدنى وزاروا مدناً مثل القسطنطينية، على مبعده أميال قليلة فقط من موقع طروادة القديمة. ومن المؤكد أنه توفرت الكثير من الشروحات عن "أعاجيب" شرقية في عملي الرومانس على حدّ سواء.

شوسر وشكسبير: ترويلس وكريسيدا

لعلّ أعظم رومانس في القرن الرابع عشر هو "ترويلس وكريسيدا" Troilus and Criseyde للشاعر الإنكليزي جيفري شوسر (١٣٤٠-١٤٠٠). وإذ يركز هوميروس على مفاعيل العاطفة (في الحبّ كما في الشهوة، وشدّة الغضب) على الحرب، فإنّ شوسر يضع الحبّ والفقد في مقدّمة الحدث، ويترك للخلفية الحرب والدمار المحتوم لطروادة. كذلك يضع حكاية طروادة في منظور مسيحي، عن طريق سرد القصة الوثنية على لسان راو مسيحي. وترويلس فارس طروادي نبيل ظلّ يحتقر الحبّ، حتى صرعه إله الحب، وأجبره على الوقوع في غرام أرملة جميلة، كريسيدا، وسرعان ما تهجره هذه لتحبّ فارساً إغريقياً هو ديوميدي، فيخوض ترويلس قتالاً ضارياً ضدّ الإغريق حتى يُقتل.

غير أنّ البطلة كانت، في عهد وليام شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦)، قد راكمت سمعة سيئة في الوجدان الشعبي العام، فلم يجد شكسبير حرجاً في إعادة سرد حكايتها في مسرحيته المريعة عن الحرب، والسياسة، ودمار النظام الصالح، فجعل منها عاهرة، وجعل عمّها قواداً، وترويلس مغفلاً، وظهر عوليس (أوديسوس) في صورة من يستغلّ أخيل لتحقيق مآربه. وفي نهاية المطاف، وإياً كانت درجة التبدّل في الشخصيات وعلاقات القوّة، لا مناص من أن تسقط طروادة كما كانت عليه حالها في كلّ الحكايات التي تستعيدها.

تاسو: طروادة في القدس

"تحرير القدس" Gerusalemme liberata، للإيطالي توركاتو تاسو (١٥٤٤-١٥٩٥)، هي الملحمة الرومانتيكية الأشهر في عصر النهضة. وقد كتبت في سنة ١٥٧٥، ونشرت بعد ستّ سنوات دون إذن مؤلفها، ممّا جعله يراجعها أكثر من مرّة بعد ذلك، وهو تحت وطأة نوبات الجنون، ممّا أفسد الكثير من خصائصها. وحكاية الملحمة تدور حول غودفري أوف

حديدي: تاريخ للمخيلة

بويلون، والحملة الصليبية الأولى، وتستعرض محاولات الشيطان الفاشلة، بمساعدة الساحرة الفاتنة أرميدا، لمنع الصليبيين من احتلال مدينة القدس. ورغم أن القصيدة مُصاغة تماماً على غرار "إلياذة" هوميروس و"إنيادة" فرجيل، إلا أنها تتميز بنبذة مختلفة ونطاق جغرافي أوسع وتركيز على الآخر (سلسلة الغراميات بين الفرسان الصليبيين والفتيات "الوثنيات")، وامتزاج حكايات الحب بالتصوير الملحمي للمعارك والمغامرات والدسائس. وحصار طروادة يحضر بقوة في القصيدة، وبرز الأمثلة عليه تلك البرهة الفريدة حين تقف هرمينيا (ابنة ملك أنطاكية المسلم، والواقعة في غرام الفارس الصليبي تانكريد) على أسوار القدس، وتدلّ الصليبيين على قيادات الجيش المسلم، تماماً كما فعلت هيلين مع بريام في "الإلياذة".

راسين وغوته: إغينيا قبل طروادة

في فرنسا القرن السابع عشر، أعاد جان راسين (١٦٣٩-١٦٩٩) سرد قصة إغينيا في أوليس، معدلاً الحكاية الإغريقية القديمة بما يخدم الحساسية الفرنسية النيو-كلاسيكية. يتجمع الجيش الإغريقي في أوليس استعداداً للإبحار إلى حصار طروادة، لكن الريح غير مواتية ويُطلب من أغاممنون التضحية بابنته، فيتردد، ثم يضغط عليه عوليس لتنفيذ الأمر لأن الجيش سوف يتمرد عليه إذا لم يفعل. يرسل أغاممنون إلى زوجته كليتمنسترا، طالباً منها أن ترسل إغينيا إلى أوليس، حيث سيزوجه من أخيل (الذي يجهل الأمر). ثم يحاول أغاممنون إرسال رسالة أخرى، طالباً من زوجته الامتناع عن المجيء، لكن الأوان كان قد فات. تصل إغينيا وتكتشف ما ينتظرها. ولأنها ابنة مطيعة على نحو مدهش، توافق على الموت من أجل أبيها والقضية الإغريقية. وإذا يجري اقتيادها لتنفيذ التضحية، يصل رسول يقول إنها اختفت من المذبح، واستبدلت بغزاة. وفي القرن الخامس ق. م. كان يوربيديس (٤٨٠-٤٠٧ ق. م.) قد كتب "إغينيا في توريس"، رايلاً حياة إغينيا المريرة كراهبة في أرض توريس، حيث طلب منها التضحية بكلّ الغرباء العابرين، بناء على أوامر تاوس ملك توريس. وبعد سنوات عديدة يرسو غريبان على الشاطئ لا تعرفهما إغينيا. لكن أحدهما شقيقها أوربيستس، الذي أصابته الجنّيات بمسّ من الجنون عقاباً له على قتل أمّه كليتمنسترا. الغريب الثاني كان بيلاديس، ابن عمّ أروبيستس. وحين يتعرّفان على بعضهما البعض، يرسمان خطة ناجحة لخداع الملك والفرار من توريس. الشاعر والمسرحي والروائي

الألماني غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) أعاد كتابة هذه المسرحية فحوّلها إلى احتفاء، مدهش بعض الشيء، بقدرة المرأة النقية على علاج الجنون والشرّ في الأحقاب الوثنية، كما يمثلها الملك تاوس الذي كان مفهومه للضيافة ينطوي على سفك دماء الأعراب العابرين إرضاء لآلهته.

II

كلّ الدروب تبدأ من طروادة!

١. روما ضدّ إسطنبول

يرى جيمس هاربر، في ورقة بعنوان " روما ضدّ اسطنبول : المزاعم التنافسية والقيمة المعنوية للطرواديين " (٢)، أنه حين أخذت الإمبراطورية العثمانية في الانبثاق، والتحوّل إلى قوّة متوسطة، جهد الأوروبيون في عصر النهضة إلى تفسير أصول، ونجاحات العثمانيين. وطبقاً لإحدى النظريات الشائعة والشعبية، اتخذ الأتراك اسمهم من توركوس *Turkus*، قائد زمرة من الطرواديين الذين فرّوا إلى داخل آسيا بعد سقوط طروادة. وبعد أن عاشوا مغمورين وفي شروط من العزلة طيلة آلاف السنين، عاد أحفاد توركوس إلى الظهور وتولوا مصيرهم بأيديهم واستردوا "مجد إيليوم *Ilium*".

هذه وسواها من النظريات الني ربطت بين الأتراك والطرواديين، جوبهت بمعارضة شديدة، والسجلات حول أصول الأتراك تبيّن الأهمية، والقيمة المعنوية للتراث الطروادي في مخيطة عصر النهضة. ومن خلال "إينياس التقيّ" *Pius Aeneas*، المؤسس الأسطوري للشعب الروماني، بادر كلُّ من البابا (بوصفه الحبر الأعظم *Pontifex Maximus*) والإمبراطور الروماني، إلى إدعاء امتلاك الإرث الطروادي. وإن مشاركة الآخرين في هذا الإدعاء، خصوصاً إذا كانوا شعوباً غير مسيحية، كان كفيلاً بتميع القوّة الرمزية التي كان التماهي مع طروادة يوّلدها. وإذ بدأت أوروبا الكاثوليكية تشعر أنها أكثر عرضة للتهديد المباشر نتيجة التوسّع الجغرافي و "الآخريّة" الثقافية للإمبراطورية العثمانية، أخذت الاعتراضات على الأصول الطروادية للأتراك تأخذ صفة أشدّ إلحاحاً. كانت عناصر الكرامة والقيمة المعنوية لصيقة ضمناً بالتراث الطروادي، واقتضى العداء المتزايد بين اسطنبول وروما أن يتمّ إنكار وجود هذه الفضائل عند شعب عدوّ. وهكذا كرّس

حديدي: تاريخ للمخيلة

الباحثون، بمن فيهم البابا بيوس الثاني، كل طاقاتهم لدحض أي اقتران بين الأتراك والطروديين. وفي الآن ذاته انتشرت بسرعة رسومات تصويرية تحتفي بالتراث الغربي للطروديين. ورغم أن هذا الميل الأيقوني يُنسب عادة إلى ما عُرف من اهتمام عصر النهضة بالحقبة الكلاسيكية، إلا أن رسومات فرار إينياس من طروادة تنبع من النزاع ذاته بين الغرب والإمبراطورية العثمانية، وتنتمي إلى الخطاب ذاته الذي نعر عليه مكتوباً عند نيكولوس ساغونيدو Sagunido عن أصول الأتراك . De Turcarum Origine

٢. بريطانيا الطروادية

في عرض احتفالي يعود إلى العام ١٦٠٥، بعنوان "انتصارات بريطانيا الموحدة"، يروي أنتوني ماندي تاريخ الأصول الطروادية المبكرة لإنكلترا في ما يتصل بمفهوم جيمس الأول عن بريطانيا الموحدة. الخرافة الأسطورية، والتي تعود إلى القرن الثاني عشر وسيرة جيفري أوف مونماوث، تروي أن بروت، سليل إينياس المباشر، اتجه صوب الغرب استجابة إلى رؤيا أبلغه بها أحد العرّافين. وبعد أن رسا في إلبيون (إنكلترا)، قام بروت وسلالته الطروادية بغزو البلاد التي كان العمالقة يعيشون فيها فساداً، ثم وحّدها وبنى المدينة الكبيرة تروينوفانت (لندن) على ضفاف التيمز. هذا الإنحاد كان قصيراً مع ذلك، لأن الحرب الأهلية اندلعت بعد أن قسّم بروت الأرض بين أبنائه الثلاثة، الذين بدورهم شكلوا إنكلترا وسكوتلندا وويلز. وعرض ماندي، حسب سكوت شيفيلد، هو المادة الأوضح عن الاستثمار الإيديولوجي لماضي إنكلترا الطروادي.

٣. ديدو (إليسا): ملكة إنكلترا

مسألة زواج الملكة إليزابيث الأولى سحرت وحيّرت المراقبين. وكانت مسرحية "ديدو ملكة قرطاج" هي إسهام المسرحي البريطاني كريستوفر مارلو (١٥٦٤-١٥٩٣) في هذا النقاش. ولقد بينت ديان وليامز كيف يعيد مارلو تركيب مادّة المصدر الفرجيلي ليقدم نموذجاً سلبياً عن الآثار المدمرة التي يتركها الحب والرغبة في الزواج، على ملكة قديرة ومتألقة. وحسب مارلو، تبدأ متاعب ديدو حين تصبح الضحية القسرية للجنة تجبرها على استبدال خطابها الكثيرين بزواج. ومعالجة مارلو لوقوع الملكة القرطاجية في إغواء خطيب عاجز يهجرها بعدئذ، تعيد التشديد

على الفرضية الكبرى في الحكاية: أن ديدو، في إعلان رغبتها الزواج من إينياس، تضع نفسها، وبلادها، عرضة لاستغلال أمير أجنبي. وإذ يقيم مارلو تناظراً بين اسم إليزابيث واسم إيسا عند فرجيل، تقوم المسرحية بامتداح إليزابيث استطراداً، لأنها حين رفضت الزواج كانت قد حافظت على رفاه شعبها وحرّيته. وبالطبع لا تقع ديدو في هوى إينياس إلا حين يروي سقوط طروادة، على نحو وجداني مؤثر للغاية. مارلو أجرى سلسلة تعديلات على النصّ الفرجيلي الشهير، بما يعطي إشارات دالة حول طبيعة قراءة "الإنياذة" في تلك الحقبة، وفي ذلك ترى وليامز أن إعادة تقديم شخصية إينياس على هذه الشاكلة عقّدت المحاولات اللاحقة لموقعة الهوية الإمبراطورية الإنكليزية في سياقات الإرث الطروادي.

٤. "رماد من طروادة"

في الشيد التاسع، الكتاب الثالث، من القصيدة الملحمية Faerie Queene للشاعر الإنكليزي إدموند سبنسر (١٥٥٢-١٥٩٩)، تقضي بطلّة الكتاب بريتومارت، الملقبة بـ "فارس الطهارة"، ليلة في القلعة تلتقي خلالها بشخص غامض، وحادّ المزاج يدعى باريديل، وامرأة مستهترّة هي هيللينور. في اليوم التالي تواصل بريتومارت رحلتها المقدّرة في الزواج وتأسيس السلالة، ويظلّ باريديل في القلعة لإكمال إغواء هيللينور، ثم لا يلتقيان بعدئذ. غير أن هذا اللقاء القصير شديد الأهمية بالمعنى الأيديولوجي، لأنّ بريتومارت وباريدال يكتشفان أنّ بينهما آصرة قرابة، هي طروادة دون سواها: إنه حفيد باريس، رجل الغواية، والمتسبب في خراب المدينة؛ وهي حفيدة "بروت الطروادي"، الطروادي المؤسس الأسطوري لبريطانيا.

٥. اللغة الفرنسية جاءت من طروادة

خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر جعل رجال الأدب الفرنسيون البحث عن الأصول التاريخية للغة الفرنسية ميدان بحثهم الرئيسي. ولقد خاضوا في ملفات التراث السلتي Celtic لشعوب الغول Gauls، وتدقق المؤثرات الإغريقية عبر المستعمرة الفوسية في مرسيليا، وتأثر اللغة اللاتينية من خلال الفتح الروماني، وتأثيرات الفرنجة Franks الجيرمانية... وكانوا في الواقع يتقنون الماضي بحثاً عن أمجاد الفرنسية في المستقبل. وهكذا أثاروا مبدأ "التناقل الثقافي"

Translatio studii لبيّنوا أنّ معارف الحضارات الكبرى خلال العصور القديمة مرّت في فرنسا أيضاً، ومنذ أزمّة سحيقّة، وأنّ اللّغة الفرنسيّة متأثّرة بالإغريقيّة قدر تأثّرها باللّاتينيّة. وللتدليل على هذا استعادوا، كما يرى بول كوهن، الأسطورة القروسطيّة التي تقول إنّ الطرواديين لجأوا إلى فرنسا بعد تدمير طروادة، وإليها نقلوا الغتهم ونظام حكمهم الملكي. وكان باحثون إنسيون من أمثال هنري إتيين Estienne وجان لومير Lemaire قد وضعوا مصنّفات مفصّلة في النسب اللساني الفرنسي مع اللسان الهيليني والأواصر التي أقامتها الهجرات الطروادية إلى فرنسا. وهذه الأسطورة الطروادية عن الأصول اللسانية الفرنسيّة تصوّر سمات هامّة من تطوّر الفرنسيّة الحديث المبكر، وتوضح كيف أمكن استنفار التاريخ اللساني من أجل خدمة أغراض إيديولوجيّة جوهرها ترسيخ ثقافة النظام الملكي. ومن الطبيعي أن يفرضي الاقتران بين طروادة وفرنسا على اقتران مائل بين أمجاد العصور القديمة وحاضر النظام الملكي، فضلاً عن توطيد مواقع فرنسا في وجه الثقافة الإيطاليّة المنافسة.

٦. حصار طروادة. . . حصار أفينيون

في نيسان (إبريل) ١٤٠٠ شهدت مدينة أفينيون الفرنسيّة عرضاً يعيد إنتاج حصار طروادة. وهذا حدث كان سيمرّ عادياً في مدينة اعتادت مثل هذه العروض، لولا أنّ الواقعة كانت هذه المرّة ذات خلفيات أبعد، وأعمق من مجرد عرض عادي. كانت المدينة في مأزق، ومختلف أحزابها السياسيّة تتنازع، وقائدها الطبيعي البابا نفسه يتعرض لهجوم فعلي، ورمزي، ويقع مقرّه تحت الحصار. جرى هذا على خلفيّة الشقاق الكبير داخل الصّفّ المسيحي، والذي أسفر عن انقسام البابويّة بين روما، والبابا بنديكت الثالث عشر، وأفينيون والبابا كليمان السابع. في غضون ذلك كان الملك مريضاً يعاني من العته، وكان العرش مبعثراً بين عمّه دوق أورليان، والملكة والكنيسة. وهكذا بات التماهي المجازي بين أفينيون وطروادة، في حال الحصار تحديداً، هو المنفذ والخلاص والوسيلة الأخيرة لاستعادة تماسك المدينة.

٧. فينيسيا: مستقرّ الطرواديين

خلال القرن السادس عشر ترسخت في فينيسيا أسطورة تقول إنّ المحاربين الطرواديين أقاموا

مستوطنة لهم في البحيرة الفينيسية . وإذا كان محتوى الأسطورة يمتح من " الإنباذة " وينسج على منوالها ، فإن حكاية تأسيس الطرواديين لمدينة فينيسيا استخدمت هنا أيضاً لأغراض إيديولوجية مباشرة تهدف إلى امتداح صفات النبيل والصمود والحرية التي تتمثل في نظام الجمهورية القائم آنذاك . وإرث هذه الأسطورة تواصل ، بشكل علني أو مضمهر كما ترى شايلاداس ، على امتداد القرن السابع عشر ودخل في صلب السجلات السياسية والعقائدية طيلة عصر النهضة ، وجرى توظيفه من جانب جميع أنظمة الحكم التي شهدتها فينيسيا .

III

القصيد الطروادية

لا طروادة ثانية

وليام بتلر بيتس

كيف لي أن ألومها لأنها ملأت أيامي

بالبؤس ، أو لأنها جنحت أخيراً

إلى تلقين الرجال الجهلة أعنف السُّبيل ،

أو أَلقت بهم إلى الشوارع الواسعة والدروب الضيقة .

ألم تكن عندهم شجاعة إلاتك التي تساوي الرغبة؟

ما الذي كان سيجعلها تجنح إلى السلم وفيها روح

أسبع عليها النبيل بساطة النار ،

وفتنّة مثل قوس مشدودة ، مثل خَلق

ليس من الطبيعة في عصر كهذا ،

هي العالية ، العزلاء ، العابسة؟

ما الذي قد تكون جنت يداها ، وهي ما هي عليه؟

أكانت أمامها طروادة أخرى لتحرقها؟ (٣)

هيلين

هـ . د .

كلها بلاد اليونان ، تمقت
العينين الساكنتين في الوجه الأبيض ،
ثريا الزيتون الصقيل
هناك حيث تقف ،
هناك حيث اليدان البيضاءوان .

بلاد اليونان بأسرها تستمطر اللعنات
على الوجه الشاحب آن تبسم ،
آن تستدر المزيد من الكره
وتزداد شحوباً وبياضاً
مستعيدة فتنات الماضي
وعَلَلِ الحاضر .

بلاد اليونان تبصر ، ولا تريم إذ تبصر ،
ابنة الرب ، مولودة الحب ،
جمال القدم الباردة
والركبتين الأشدّ نحولاً ،
والبلاد ليس في وسعها أن تحبّ الصبية ،
إلا إذا رقدت ،

مثل رماد أبيض وسط سرورة الجنازة . (٣)

أرق. هوميروس. أشرعة مشدودة

أوسيب ماندلشتام

أرق. هوميروس. أشرعة مشدودة.

نصف لائحة السفن ملكي: طيران اللقالتى ذاك، والخط الطويل المديد،
الذي صعد ذات يوم، من قلب هيلاس.

إلى أرض غربية، مثل كتبية من اللقالتى-

زبد الآلهة على هامات الملوك-

إلى أين تبحرون؟ كيف يمكن لأشياء طروادة

أن تبدو في ناظركم، أيها الإيجيون، من دون هيلين؟

البحر، أو هوميروس- كل شيء يتحرك حين يتوهج الحب.

إلى من يتوجب أن اصيخ السمع؟ هوميروس غارق الآن في الصمت،

والبحر الأسود يردد بلاغة عصماء، مضطرباً،

ثم يجيش، ويزأرتحت مخدتي. (٥)

محمود درويش: خيارى أن أكون شاعراً طروادياً

* شعرك يزداد ياساً. . .

- من حق الشعر أن يعلن ياسه، ولا يُلام إعلامياً على هذا اليأس. أنا لا أعرف شعراً عظيماً
وليد حالة انتصار. حتى في التراث الإغريقي. لا تهزنا مدائح النصر بقدر ما يهزنا التضامن مع
الضححايا. مشكلة الشعر الإغريقي أننا لم نسمع الشعر الطروادي. لم نقرأه. يُقال إنه كُتب على
ألواح وفُقد.

* هل تتصور نفسك طروادياً حديثاً؟

- نعم، هذا ما أريده. خيارى أن أكون شاعراً طروادياً. أنا منحاز تماماً إلى الخاسرين، الخاسرين

المحرومين من حق تسجيل خسارتهم وفي إعلان هذه الخسارة. أنا ميال إلى التعبير عن هذه الخسارة لا إلى التسليم.

* هذا أكثر من اليأس .

. ممكن . لكن وقعه على عين القارئ وأذنه أخف . أنا بصدد مشروع شعري لا غير . من حق الشعر إعلان الهزيمة ، وتسجيل الخسارة . أنا فعلاً منحاز إلى طروادة لأنها الضحية ، ولأن تربيتي وتكوينني النفسي وتجربتي تجربة الضحية ، وصراعي مع الآخر محوره : من منّا هو الأحق بموقع الضحية؟ كنت أمازح الآخرين قائلاً : تعالوا نتبادل الأدوار . أنتم ضحية مدججة برؤوس نووية . أنا ضحية مغلوبة مدججة برؤوس شعرية . أخشى أن يتفوقوا علينا شعرياً . هذه ستكون نهايتنا . لا أعرف إذا كان التفوق الشعري يعطينا شرعية وطنية . لكن هذا هو عملي في كل حال .

* أنت تسكن شعرك . . .

. أسكن شعري . أختار أن أكون طروادياً . تمنيت مراراً أن أنتصر لأمتحن إنسانيتي وقدرتي على التضامن مع الضحايا ، عندئذ أمتحن . لكنني محروم من أن امتحن إنسانيتي بالتضامن مع ضحية تسببت على نحو ما في صنع مصيرها ! أختار أن أكون شاعر طروادة لأن طروادة لم ترو قصتها . نحن للآن لم نرو قصتنا رغم كل الكتابات التي كتبناها . لم نرو قصتنا وهذا ما يفسر مقطعاً قلت فيه إن من يكتب حكايته يرث أرض الكلام . (٦)

IV

طروادة الراهنة

آخيل في فيتنام

في كتابه المثير الذي صدر سنة ١٩٩٤ ، وحمل العنوان الغريب " آخيل في فيتنام " ، يدون المحلل النفسي جوناثان شاي تفاصيل عمله مع مجموعة من المحاربين القدماء الأمريكيين الذين خدموا في فيتنام أثناء

الحرب، وتعرضوا لاختلالات، واضطرابات نفسية .

ولقد عقدت الدهشة لسان شاي وهو يقف على مدى تماهي هؤلاء العسكريين مع شخصية آخيل في " الإلياذة" ، ووجد نفسه منساقاً إلى التفكير في أن ملحمة هوميروس تضيء تجربة القتال العسكري الفعلية على نحو يتفوق أحيانا على الطرائق العلمية المتقدمة . وشدّت انتباهه بصفة خاصة واقعتان تكررتا كثيراً عند هوميروس ، في لحظات القتال القصوى تحديداً: خيانة القادة العسكريين للمعايير الأخلاقية أو المعنوية، ونشوء " حالة الاهتياج" السعاري ضدّ الخصم .

لكن هدف الكتاب الأعلى يظل تربوياً، أي توعية القراء حول النتائج الكارثية التي تخلفها تجربة الحرب في نفوس الأفراد، الذين قد يخرجون منها في وضع سليم تماماً جسدياً، ومعتلاً تماماً من الناحية النفسية، وفي جانب تدمير الشخصية خصوصاً . ومن بين ثلاثة أرباع مليون من الناجين من حرب فيتنام، يعتقد المؤلف أن ربع مليون على الأقل يعانون من اختلال الوظائف الذهنية على نحو يؤدي إلى ازدياد الميول العنيفة الانفجارية، وفقدان الثقة في الذات والمحيط، والعجز عن الإحساس بالثقة الاجتماعية، والانزلاق إلى إدمان الكحول والمخدرات، فضلاً عن الإحباط، والعزلة، وتفاقم أحاسيس اللاجدوى، واللامعنى .

وفي الكتاب يقدم شاي " الإلياذة" بوصفها حكاية مأساة آخيل، وقصص الرجال في الحرب . وفي الفصول الخمسة الأولى من الكتاب، يتفحص شاي بدقة محنة آخيل، وما يتعرض له من خيانة على يد قائده أغاممنون الذي يغتصب غنيمة الشرف . وتوصف الخيانة بأنها " تغلق أفق آخيل الاجتماعي والمعنوي" ، ويجري استطراداً تصويره مندفعاً خلف غضبه لا يهتم إلا بحفنة من المقاتلين التابعين له . كذلك يجري تقديم آخيل في صورة المصاب بعقدة الذنب وأعراض الهوس بالبقاء على قيد الحياة . وأخيراً يتبدى آخيل في صورة الغاضب الحانق المصاب بهياج سعاري يجعله يبطش بالأحياء والأموات سواء بسواء .

هذه هي قصة " الإلياذة" ، ولكنها أيضاً قصة العديد من مقاتلي فيتنام المتقاعدين، وشاي يسوق عشرات القصص التي عاشها هؤلاء في غمار الحرب، ويوظفها في إقامة التناظرات مع وقائع مماثلة في " الإلياذة" تتيح له فهماً أفضل لمشكلات المحاربين هؤلاء . وهو يعتقد أنهم يترددون في سرد أفاصيصهم لأنهم يخجلون منها أولاً، ولأن المجتمع المحيط بهم لا يكثرث بها أو ينفر منها، ولهذا فإن الإصغاء إلى تلك الحكايات يصبح جزءاً لا يتجزأ من سيرورة العلاج . (٧)

من طروادة إلى بغداد

نيكولاس كريستوف

عشية غزو العراق

طروادة، تركيا - الهدوء يخيم هنا على قطع الحجارة في موقع طروادة القديم المفترض. لا يوجد سواح يحملقون ببلاهة في البقعة التي شهدت قيام آخيل بثقب عنق هكتور، أو في الجدران الصخرية العالية حيث جزّ الملك بريام شعره الأشيب، أو في البوابة التي تبدى فيها علامات تفيد أنها وُسعت لتسمح بمرور جسم ضخم على غير العادة، مثل حصان خشبي ذي حجم هائل. ثم يتعالى في الفضاء هدير، وتعبّر السماء طائرتان مقاتلتان، فيتشكل نوع من الكولاج بين أولى ساحات حروب العالم، والأخرى التي تفتتح الآن بالذات إلى الجنوب الشرقي: في العراق. أدوات الحرب تبدّلت على نحو فائق خلال ٣٢٠٠ سنة، لكنّ البشر لم يتغيروا. لهذا فإن "الباذة" هوميروس، حتى إذا كانت غير صحيحة تاريخياً، تفرز حقيقة أخلاقية عميقة بوصفها أعظم حكاية حرب رُويت على مرّ التاريخ.

وهكذا، على أعتاب حرب جديدة، تبدو قلعة طروادة الباقية على حالها، بمثابة بقعة مثيرة لاستخلاص الدروس. كانت الحرب الطروادية هي الحرب العالمية الأولى، بين أوروبا وآسيا، والحكايات تقول إنّها لم تقترن بالبطولات وحدها، بل أيضاً بالأخطاء الكارثية، وسوء القيادة، وما أسماه الإغريق حماقة متهورّة: الفخار القاتل، والغطرسة المفرطة التي تحجب عقول الأقوياء. وطروادة تزوّدنا بثلاثة دروس عن الحرب، كلّ منها راسخ مثل النبع الذي ما يزال يجري هزياً هنا، والذي وصف هوميروس مجيء الطرواديات إليه لغسيل الثياب.

الأول هو أنه حتى إذا كانت للمرء شكوى شرعية، فإنّ الحرب ليست دائماً الحلّ الأفضل. وفي الأساس انقسم الإغريق حول ما إذا كانوا سيهاجمون طروادة أم لا، وحتى الأبطال أنفسهم، مثل أغاممنون وأوديسيوس، كانوا عازفين عن خوض الحرب. لكنّ الصقور هي التي فازت ذلك النهار، والسبب يعود في جزئه إلى اعتمادهم نسخة مبكرة من نظرية [الرئيس الأمريكي جورج] بوش: إذا تركنا الطرواديين يفرّون بجلودهم بعد خطف هيلين، فإنهم سيسرقون النساء من جديد؛ وإذا لم نحاربهم الآن، فسوف نحاربهم فيما بعد، حين يصبحون أقوى.

ولقد اتضح أن الحمايم هم الذين كانوا على حقّ. خرّت أجساد كثيرة في " هذه الرحلة المجنونة " كما يصفها أخيل " لمحاربة جنود آخرين من أجل الفوز بنسائهم جزية " في مواجهة اعتبر الإغريق المنتصرون أنفسهم أنها غير جديرة . " لماذا يتوجب أن نحارب الطرواديين؟ " يسأل أخيل ، في غمرة ما يمكن اعتباره دفاعاً مبكراً عن إستراتيجية احتواء بديلة .

والسهل أسفل طروادة ، حيث غرز الإغريق خيامهم ، مكان رائع للنظر في حقيقة أخرى خالدة عن الحرب : الأهمية الحاسمة للحفاظ على الحلفاء . لقد فاق الإغريق الطرواديين عدداً ، بمعدّل ١٠ إلى ١ ، ولكنهم مع ذلك اقتربوا من حافة الهزيمة ودبّ النزاع في " تحالف أصحاب الإرادة " ضمن الصفّ الإغريقي .

أغامنون كان دونالد مسفيلد أزمانه ، الجاهز لإغضاب حلفائه الأساسيين دونما حاجة ، وإثارة سخط أخيل عن طريق الاستيلاء على خليلته . فيما بعد حاول أغامنون تليين عريكة أخيل بالإلحاح على أنه لم يضاجع المرأة أبداً ، ويهدائه سبع أسيرات فانتات . لكن أخيل انسحب من المعركة ، وهدد بالعودة إلى بلاده .

الدرس الثالث مستمد من سقوط طروادة ذاتها . لقد قدّم بعض الخبراء درساً صقرياً مفاده أنّ أعظم المدن يمكن أن تكون قابلة للسقوط في يد الأعداء . ففي نهاية المطاف كانت هجمة مسلحة واحدة كفيلة بتدمير طروادة في لحظة : ذات مساء كان الطرواديون يحتفلون بالنصر ، وفي غضون ساعات قليلة كان الإغريق يسفكون دم أستياناكس ابن هكتور ، لكي لا تقوم لطرودة قائمة بعد ذلك .

لكن القصة توضح بجلاء أن قصور طروادة الأساسي لم يكن عسكرياً . وما كان لطرودة أن تنقذ نفسها عن طريق الأسوار العالية والرماح الطويلة . طروادة دمرت نفسها لأنها رفضت الإصغاء إلى التحذيرات بصدد الحصان الخشبي .

وهكذا فإنّ الدرس الثالث هو الحاجة الماسة للإصغاء إلى الأصوات المستريية . وفرجيل يوحى أن الطرواديين استهتروا فجلبوا الحصان إلى داخل أسوارهم رغم تحذير كاساندر ولاوكون من مغبة قبول هدايا الإغريق .

ولو أنّ الطرواديين قلبوا الأمر مدّة أسبوع فقط ، خلاله يكون الإغريق داخل الحصان قد ماتوا عطشاً ، فإنّ الحرب الطروادية كانت ستتخذ نهاية مختلفة (ولعلنا جميعاً كنّا سننطق اليوم باللويفانية

Luvian، اللغة القديمة التي يُرجح أنها كانت لسان الطرواديين).

لكنّ الطرواديين أهملوا التنبيهات واعتبروها تخريفات فحكموا على أنفسهم بأنفسهم. ونحن الأمريكيين إغريق هذه الأيام، وإذ نذهب اليوم إلى الحرب فإنّ علينا أن لا نبدي الإعجاب بالحكاية فحسب، بل أن نتقبّل التحذيرات الكامنة فيها أيضاً.

تراجيديا كلاسيكية؟

عشية غزو العراق، ذهبت إلى طروادة القديمة في تركيا. البقعة مسكونة بالتاريخ، مهجورة تماماً، رغم أنك لو اعتصرت عينيك فقد تحظى بنظرة من هيلين الشاخصة على الأسوار.

في ذلك الوقت كتبت عن دروس الحرب الطروادية في غزو العراق، ولكنني الآن أجد رويحي تعود القهقري إلى طروادة من جديد. إن هوميروس يبدو راهناً اليوم أكثر من ذي قبل: في "الإلياذة" يصف كيف ينهك الإغريق قواهم في نزاع طويل حزين غير ضروري، لا يسير كما كان مقدراً له أن يسير، جزئياً لأنّ الزعيم أثار حفيظة حلفائه.

و"الإلياذة" أعظم قصص الحرب، ولكنها جوهرياً لا تدور حول الحرب. ففي نهاية المطاف لا تذكر الحصان الطروادي ولا تغطي سوى بضعة أسابيع في حرب دامت عشر سنوات. كلا، "الإلياذة" ليست عن الحرب تماماً، بل بالأحرى عن كيفية مواجهة الرجال العظماء للمأساة، وكيفية تعلّمهم الاعتدال، والميل إلى الحكمة.

وفي حال أن لا تكون نسخة من الإلياذة مكوّنة في المكتب البيضاوي، اسمحوالي أن أخص الأمر للمحاربين في واشنطن. آخيل هو، في آن معاً، المحارب الأعظم والشخصية المشاكسة الفظة المتغطرسة. إنه رجل العمل من طرف واحد، ولهذا يرفض التشاور مع الحلفاء، ويأبى قبول المعلومات الاستخبارية التي تصف نقاط ضعفه، ولا يقرأ الصحف أبداً.

وهكذا يوشك الإغريق على الانهزام، وبينما يواصل آخيل التجهم في خيمته، يُقتل صديقه الأعزّ باتروكلس. وعندها تنتقل مهارات آخيل من الجمود إلى الفعل، فيشوّه جسد هكتور، ولكنه في الختام يعود إلى خيمته، يهدأ ويكشف عن معنى جديد لحدود عمله هو بالذات، وعن نزعة اعتدال وحكمة جديدة.

هذا موضوع ثابت في الكلاسيكيات : الأبطال القدماء من أمثال آخيل وأوديسيوس لا يتفادون الأخطاء، ولكنهم يتعلمون منها. ومن خلال أخطائهم يتوصلون إلى فهم الفارق الأخلاقي والوضوح الأخلاقي في آن، ويقدرّون قيمة الاعتدال. والحقّ أنّ عنوان "الإلياذة" الفرعي يمكن أن يكون "نضوج آخيل".

ومن المؤسف أن هذه الإدارة لم تظهر حتى الآن العديد من علامات النضج. أفغانستان كانت حرباً نفّذت على أكمل وجه، غير أنّ السلام انهار سريعاً، بسبب العجز عن توفير الأمن خارج كابول. والعراق كانت حرباً جيدة التخطيط، وسلاماً بلا أيّ تخطيط. ورفض التفاوض مع كوريا الشمالية دفعها إلى تقوية خطوط إنتاج السلاح. والعجرفة (من النوع الذي كان علّة آخيل) غدى مشاعر العداة لأمريكا أكثر بكثير مما فعلت "القاعدة".

ولمتابعة النظر الكلاسيكي، من الممكن مقارنة دونالد رامسفيلد مع أجاكس، المحارب الإغريقي الذي كان يتمتع بقدرة هائلة على إبداء القوة، ولكنه كان مضللاً تماماً إلى حدّ أنه صنّف قطعاً من الخراف في عداد أعدائه (غير أنّ باحثاً مرموقاً في الكلاسيكيات اعتبر المقارنة واهية، ملاحظاً أن أجاكس تمتّع بـ "نفس نبيلة").

وأقوى دروس هوميروس، وذلك الذي يفيد الحاجة إلى كبح الجماع، والتعاون مع الحلفاء، والتعاطي مع العالم الحقيقي بدل كاريكاتورات الأبيض والأسود. ولو كان في وسع آخيل وأوديسيوس أن يتعلما هذه الدروس، فلعلّ أمام رامسفيلد بعض الأمل، أو حتى أمام بوش نفسه! (٨)

هوامش

(١) هنالك أكثر من موقع ممتاز على شبكة الإنترنت حول طروادة والملاحم المقترنة بها. يمكن الرجوع مثلاً إلى الروابط التالية:

<http://www.stanford.edu/~plomio/history.html>

<http://www.royalty.nu/legends/Troy.html>

<http://www.timelessmyths.com/classical/trojanwar.html>

(٢) لمزيد من التفاصيل، يمكن للقارئ العودة إلى وقائع مؤتمر "سقوط طروادة ومخيلة عصر النهضة"، على الرابط التالي:

<http://www.crrs.ca/events/conferences/troy/program.html>

(٣) هذه القصيدة واحدة من سلسلة قصائد غنائية قصيرة كتبها الشاعر الأيرلندي الكبير وليام بتلر بيتس مطلع القرن الماضي، وُجمعت تحت عنوان "قصائد هيلين". وهي تدشن الطور الأوضح من انتقال بيتس إلى رموز الثقافة الإغريقية الهيلينية، وإحياء التراث السلتي، وتوظيف معطيات الملحمة الهوميروسية (وحصار طروادة خصوصاً) في تمثيل الوجدان الأيرلندي ونزوعات التحرر من الاستعمار (الأمر الذي توقف عنده بعمق إدوارد سعيد، وشيموس دين، وتوم بولين).
وضمير المؤنث في القصيدة يعود، بمعنى السيرة المحضة، إلى مود غون التي ربطتها مع بيتس علاقة غرامية عاصفة، ومن الواضح أنه هنا يحيلها رمزياً ودلالياً إلى شخصية هيلين. غير أن الخلفية الأخرى الأعمق في القصيدة تتمثل في خيط التماهي الخفي الذي يعقده بيتس بين غون/هيلين من جهة، وأيرلندا المنخرطة في البحث عن هوية قومية، خصوصاً في هذا المقطع الذي يمزج نقائض الجنوح إلى السلام ببساطة النار والفتنة في القوس المشدودة.

(٤) في عام ١٩٦١، قبيل وفاتها، نشرت الشاعرة الأمريكية هيلدا دوليتل (١٨٨٦-١٩٦١)، المعروفة بالأحرف الأولى من اسمها H. D. ، عملاً فريداً بعنوان "هيلين في مصر" طوّرت فيه النظرية البديلة التي تقول إن هيلين لم تكن في طروادة زمن الحصار، بل في جزيرة قرب مصر. وكان يوربيديس، في مسرحيته "هيلين"، قد بدأ هذه الرواية البديلة التي زعمت أن هيلين التي ظهرت في طروادة كانت مجرد تقليد، أو "طيف"، ينوب عن هيلين.
أهمية نصّ H. D. تنبثق أيضاً من طبيعة المزج العنيف الذي مارسته الشاعرة (التي خضعت لجلسات تحليل نفسي في عيادة سيغموند فرويد) على أبطال الملحمة الهوميروسية، على نحو لا ينصف شخصية هيلين المرأة العاشقة فحسب، بل ينصف أيضاً الطرواديات والطرواديين في سياق ما يشبه "رواية مضادة" للروايتين الراسختين في "الباذة" هوميروس و "إنباذة" فرجيل. ثمة، مثلاً، مقطع شهير يبدو فيه آخيل عاشقاً متبهماً بهيلين، "تقتله" نظرة إليها حين يلحمها واقفة على أسوار طروادة، فيرى انعكاس نفسه في عينيها، وهو الانعكاس الذي سيتكرر لمرةٍ أخيرة حين يغتسل آخيل على شواطئ مصر. والحال أن دوليتل تجعله يذوب، وتبعثر بقاياها في الرياح، فيجد نفسه منتقلاً من سهل طروادة إلى قارب يحبر به صوب مصر، متماهياً مع قارب الموت الذي أبحر فيه أوزيريس.

(٥) طريفة، بقدر ما هي عذبة وبديعة، هذه "التنويمية" الذاتية التي كتبها الشاعر الروسي أوسيب ماندلشتام (١٨٨٩-١٩٣٨) من وحي الحكاية الطروادية. "لائحة السفن" هنا هي التي تظهر في الكتاب الثاني من "الإلياذة"، وتتضمن تعداداً أسماء السفن المبحرة لحصار طروادة (وماندلشتام يستعيد هنا على سبيل العادة المألوفة في العَدْلُطرد الأرق). وهيلاس هي اليونان بالطبع، واللقائق، وأسراب الأوز، بين الصفات التي استخدمها هوميروس في وصف إسراع القبايل الإغريقية إلى الحرب.
لكن القصيدة، كما هي الحال في معظم أشعار ماندلشتام، تصف على نحو مبطن، وغير مباشر سلسلة عذاباته الشخصية في الغولاغ السيبيري الذي نفاه إليه ستالين بتهمة "الثورة المضادة"، وفيه توفي. كما تخاطب روح روسيا ضمناً، من خلال مخاطبة الطرواديين والإيجيين، والمزج بين صمت هوميروس وصخب البحر الأسود.

(٦) حوار أجراه عباس بيضون في عمّان، ونُشر في "الوسط" أيلول-تشرين الأول ١٩٩٥، وأعدت نشره فصلية "مشارف"، العدد ٣، ١٩٩٥.

(٧) عرض بقلم إروين كوتاش، لكتاب Achilles in Vietnam، ونُشر في Journal of Criminal Justice and Popular Culture، ٢(٥) (١٩٩٤) ١٢٢-١٢٤

(٨) نيكولاس كريستوف كاتب أمريكي وصاحب عمود في صحيفة "نيويورك تايمز"، والمقاتل نُشر تانفي The Milwaukee Journal Sentinel، بتاريخ ١٩ آذار (مارس) و٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣.